من آيات الله

فى إحياء الأرض

قال تعالى فى سورة فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمُوتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

إن المتأمل فى هذه الآية الكريمة أعماقاً وأبعاداً يجد أن للقرآن الكريم طريقته فى بيان إمكان البعث والنشور وقد كانت مشاهد الكون المنظور: السماء، الأرض، الماء، النبات، الليل، النهار، الدليل المباشر لتحقيق أغراض القرآن الكريم فى هذا كله. استدل القرآن الكريم بأحوال السماء والأرض، وما بينهما على البعث والنشور، فالذى خلق هذا الكون العظيم، البديع المتسق على غير نظير سابق، ولا مثال محتذى والذى أوجد هذه الأجرام من العدم، ولم يعجزه إنشاؤها، قادر على أن يبعث الإنسان، وينشئه نشأة جديدة. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وقال تعالى فى سورة الإسراء أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال تعالى فى سورة الأحقاف: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقد لفت القرآن الأنظار إلى آيات الله المحيطة بالغافلين من سماء رفعها وأرض بسطها، واستدل القرآن الكريم بأحوال النبات على البعث والنشور.

قال تعالى فى سورة الحج: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقال تعالى فى سورة الروم: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

لقد قدم القرآن طرقاً متنوعة تدور كلها حول محور واحد، وهو إثبات قدرة الله الباهرة فى الإنسان والكون.

فالإنسان وتعاقبه فى الخلق، وتحوله من حال إلى حال، والأرض وما تخرجه من نبات كل ذلك آية من آيات قدرته.

ومهما اختلفت الألفاظ التى وصفت بها الأرض قبل الإنبات. ﴿وترى الأرض هامدة﴾ و ﴿إنك ترى الأرض خاشعة﴾ و ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها﴾ فإنها لا تخرج عن معنى واحد، هو فقدان الأرض معالم الحياة والوجود قبل إنزال الماء عليها، وهو ما عُبِّر عنه فى الآيات بالهمود، والخشوع، والموت، وقد وصف القرآن هذه العملية عملية إخراج النبات من الأرض بالماء بأنها آية، وهو بهذا يشير إلى ما لها من دلالة وبينة على إمكان البعث والنشور، وإلى هذه القدرة الحكيمة المتصرفة فى الكون جميعه، لا يعجزها شئ فى الأرض ولا فى السماء.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وكأن الله سبحانه يقول لبنى آدم: أنتم ترون هذه الأرض التى منها زادكم وماؤكم، وفيها ترعى أنعامكم، هذه الأرض إذا أمحلت ماتت، ويبس نباتها وغار ماؤها، فإذا نزل المطر عليها من السماء تشققت، ورأيت النبات يبزغ من بين الشقوق، ثم يخضر، فيصير أطلاً، يتغذى منه الإنسان، ويسمن عليه الحيوان، ويدر الضرع، وينضر الزرع، أليس الذى أحياها بقادر على أن يُحيى الموتى،

بلى. وما أشبه خروج النبات بعد المطر بخروج الأجسام من تحت الثرى. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يمطر على الأرض مطر الحياة فيخرج الناس كأنهم نبات»..

ومشهد إحياء الأرض بالماء النازل من السماء مشهد له دلالته العميقة الناطقة بالقدرة على الإحياء والإخراج قال تعالى فى سورة فاطر: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٥٧].

فمن آيات الله الدالة على توحيده وقدرته على إحياء الموتى والبعث أنك ترى الأرض خاشعة هامدة لانبات فيها، بل هى ميتة يابسة مغبرة، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وربت وانتفخت. قال ابن كثير: أى أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار.

وإذا عدنا إلى النص القرآنى: ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ وجدنا أنه ينتهى بقوله تعالى: ﴿**إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شئ قدير**﴾.

ويتكرر فى القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجاً للإحياء فى الآخرة ودليلاً كذلك على القدرة.. ومشهد الحياة فى الأرض قريب من كل قلب، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول. والحياة حين تنبض من بين الموات توحى بالقدرة المنشئة إيحاءً خفياً، ينبض فى أعماق الشعور.

وإن هذه القدرة التى أحيت تلك الأرض الميتة، لا يعجزها أن تعيد الأجسام الميتة الهامدة إلى الحياة مرة أخرى، فهذا من ذاك سواء بسواء.

وورد فى تفسيرات بعض الآيات متكرراً فى ثنايا القرآن: أنه إذا أراد الرحمن بعث من فى القبور أرسل مطراً مخصوصاً منه لهذه الغاية، فإذا نزل لا يترك بقية وجدها من إنسان، ولو ظفر أو كسرة عظم إلا نبتت كما ينبت العشب، فإذا تكاملت الأجسام لحماً طرياً مُخَلَّقاً، أرسل الله إسرافيل فينفخ النفخة الأولى فترتجف تلك الأجسام، فتسرى فيها بإذن ربها الأرواح، ثم يأمره فينفخ النفخة الثانية: ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾.

إننا فى أشد الحاجة إلى أن ندرك ونتأمل، ندرك ما حولنا من مشاهد ونتأمل فى تلك المشاهد، لنقف على ما وراءها.

ولعلنا ندرك أن عرض القرآن الكريم لمشاهد الكون ليس مقصوداً لذاته. وإنما كان نقطة انطلاق لغاية وراءها، وهى نقل الإنسان عن طريق التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض إلى الإيمان بالله، وبالكتاب، وبالنبوة، وبالبعث.. صاحب المشاهد أساليب مختلفة، استجاشة للأحاسيس وتحريكاً للنفوس.

* * *